مملكتي سرقسطة وطليطلة وسقوطهما بيد الأسبان

د . نجلاء مفتاح علي الطلب ـ كلية التربية ـ جامعة مصراتة

الملخص:

هدف البحث إلى توضيح جانب مهم من جوانب التاريخ السياسي والحضاري مملكتي سرقسطة وطليطلة ، و إبراز دورهما وعلاقتهما بالممالك الأسبانية ودول الطوائف ، و بيان الظروف التي ساعدت على سقوطهما في يد الأسبان ، واستخدمت الباحثة المنهج التاريخي التحليلي ، حيث جمعت البيانات المتعلقة عن تاريخ المملكتين ، وخلص البحث أن مملكتين سرقسطة وطليطلة حافظة على التركيبة السكانية للأندلس ، و أن الصراع العنيف لدول الطوائف, واستعانتهم بالممالك الأسبانية , أدى إلى خراب ودمار العديد من القلاع والحصون ، و أن سرقسطة وطليطلة لم يسقطا مرة واحدة, إنما سقطت تباعًا خلال قرون عديدة بسبب الظروف التي مهدت لسقوطهما والتي جعلت الحدود الإسلامية مكشوفة وملاصقة للممالك النصرانية.

الكلمات المفتاحية: التاريخ السياسي ، مملكتي سرقسطة وطليطلة، الأندلس، الأسبان .

The kingdoms of Zaragoza and Toledo and their fall to the Spanish

Abstract: The research aimed to clarify an important aspect of the political and cultural history of the kingdoms of Zaragoza and Toledo, highlight their role and relationship with the Spanish kingdoms and the sectarian states, and explain the circumstances that helped them fall into the hands of the Spanish. The researcher used the historical-analytical method, collecting data related to the history of the two kingdoms, and concluded Research that the two kingdoms of Zaragoza and Toledo preserved the demographic structure of Andalusia, and that the violent conflict of the sectarian states, and their assistance to the Spanish kingdoms, led to the devastation and destruction of many castles and fortresses, and that Zaragoza and Toledo did not fall once, but rather fell successively over many centuries due to the circumstances that paved the way. Because of their fall, which made the Islamic borders exposed and adjacent to the Christian kingdoms.

Keywords: political history, the kingdoms of Zaragoza and Toledo, Andalusia, the Spanish.

المقدمـــــــــة :

سميت الأندلس بأسماء عدة منها مأخوذ من قبائل الوندال أو الفاندال [1], وقد حرّف سكان شمال أفريقيا الاسم إلى وندلس ؛ لأن حرف الواو في لغة أهل طنجة يحل محل أل التعريف في اللغة العربية , فاستبدلت الألف واوا وأصبح اسمها أندلس ,والعرب نطقها الأندلس[2] .

ويعد ثغرا سرقسطة وطليطلة من الثغور تفصل الدولة الإسلامية عن دولة الممالك النصرانية وغيرها من الدول , سواء في المشرق الإسلامي أو في المغرب الإسلامي, وانطلاقًا من أهمية الموقع الجغرافي والإستراتيجي , فقد سعت الدولة الإسلامية عبر العصور المختلفة على تحصين الثغور وتعزيزها بقيادة وقوة عسكرية نوعية ؛ تجعل الدولة في مأمن من الأخطار الخارجية.

وتعد سرقسطة ولاية الثغر الأعلى والخط الدفاعي الأول في الشمال , حيث مملكة اراغون , وقطالونيا في شمال شرق أسبانيا . في حين أن طليطلة هي ولاية الثغر الأدنى وتعرف في بعض المراجع بالثغر الأوسط وهو الخط الدفاعي الثاني , ضد الممالك النصرانية الشمالية الغربية مثل مملكة ليون وجليقية .

لقد أدى سقوط الخلافة في الأندلس عام 422هـ/1031م إلى انقسام الأندلس إلى دويلات صغيرة, متنازعة عرفت باسم دويلات الطوائف أو ملوك الطوائف, ورغم اتصاف غالبية ملوك هذه الدول بالضعف وسوء الرأي وتغليب المصالح الذاتية على مصالح الأمة , فإنهم عهدوا إلى تقليد الخلفاء العباسيين في حياتهم وألقابهم ونعرتهم للخلافة, ولم يترددوا في سبيل الحفاظ على سلطانهم, ومحاولة نزع ما بيد بعضهم البعض من معاقل وحصون, من الغدر ببعضهم أو التحالف مع العدو النصراني المتربص بهم جميعًا. وكانت مملكتي سرقسطة وطليطلة تمثلان تلك الممالك التي شغلت نفسها ومنذ أيامها الأولى في الصراع مع جيرانها المسلمين جميعًا في سبيل توسيع أحوازهما وتحصيل المزيد من المال والجاه, ولما عجزت ملوك بني ذي النون عن حسم صراعاتهم مع جيرانهم بأنفسهم لجأوا إلى الاستعانة بملوك النصارى لقاء دفع الإتاوات والتنازل المذل عن الحصون والقلاع الإسلامية وقد دفعت ثمن هذه السياسة الضعيفة باهظًا, إذ فقدت مع مرور الوقت معظم قلاعها وحصونها الخارجية والتي كانت بمثابة خطوط دفاعية أمامية عنها مما سهَّل من حصارها وعجَّل في سقوطهما, يحاول هذا البحث إلقاء الضوء بالعرض والتحليل إلى دور سرقسطة وطليطلة في التاريخ الإسلامي والكيفية التي سقطت بها كل من المملكتين .

إشكالية البحث:

تتلخص إشكالية البحث في الإجابة على التساؤلات الآتية:

1/ ما الدور السياسي الذي أدتاه سرقسطة وطليطلة في الأندلس؟

2/كيف كانت العلاقة بين سرقسطة وطليطلة وما علاقتهما بدول الطوائف والممالك الأسبانية ؟

3/ ما العوامل التي ساعدت على سقوط الثغرين الأندلسيين بيد الأسبان؟

هدف البحث :

يهدف البحث إلى الآتي :

1/ توضيح جانب مهم من جوانب التاريخ السياسي والحضاري للثغرين.

2/ إبراز دور الثغرين وعلاقتهم بالممالك الأسبانية ودول الطوائف .

3/ بيان الظروف التي ساعدت على سقوطهما في يد الأسبان .

أهمية البحث:

تمكن أهمية البحث بيان الدور السياسي الذي أدته مملكتي سرقسطة وطليطلة مع الممالك المجاورة , وإلقاء الضوء على الكيفية التي سلمت بها المملكتين , وي ذات الوقت فإن البحث إضافة للمكتبة العلمية وسيكون مفيد للباحثين .

حدود البحث:

البعد الزماني : يبدأ من بداية تكون دول الطوائف 422هـ/ 1030م, إلى غاية بسقوط طليطلة يبد الأسبان سنة 487هـ/1085م.

البعد المكاني: يتشمل البعد الجغرافي للثغرين سرقسطة وطليطلة .

المنهج المتبع :

إن الباحثة اتبعت المنهج التاريخي التحليلي حيث جمعت البيانات المتعلقة بالموضوع الثغرين في تاريخ الأندلس.

المحور الأول ـ تعريف الثغور ونشأتها في الأندلس :-

المبحث الأول ـ تعريف الثغور :

1- التعريف اللغوي : عرفت الثغور تعاريف عدة منها ما أورده ابن دريد في كتابه جمهرة اللغة حيث قال " أثغر الغلام إذا نبتت ثغره , وأثغر إذا ألقى أسنانه " [3] .

وهو بذلك يتفق مع ابن فارس في كتابه معجم مقاييس اللغة حيث يقول " ثُغِر الصبي إذا سقطت أسنانه , وأثغر إذا نبتت بعد السقوط وربما قالوا عند السقوط " [4]

بينما يوردها الفيروزآبادي بمعني" ثلمَ و الثلمةُ سدَّها " [5]. في حين يقول ابن منظور" ثغرت الجدار إذا هدمت"[(6)]. ومن هذا يمكن أن نستنتج أن الثغر عبارة عن فراغ بين فتحتيين يمكن سده.

التعريف الاصطلاحي للثغر : يقول ياقوت الحموى" كل موضع قريب من أرض العدو"[(7)]و يورده الفيروز آبادي بمعني" موضع ما يلي دار الإسلام " [(8)]

وقد ورد الثغر في دائرة المعارف الإسلامية بمعني : "منطقة الحصون التي بنيت على تخوم الجزيرة و الشام لصد هجمات الروم " [(9)]

المبحث الثاني ـ نشأة الثغور الأندلسية:ـ

بعدما أن استكمل المسلمون فتح شمال إفريقيا قام القائدين موسى بن النصير وطارق بن زياد بتتبع فلول الروم الهاربة من إفريقيا إلى الأندلس وتصفيتهم من مراكزهم ومواقعهم في إفريقيا, وبالتالي أصبحت الأندلس من أهم الثغور الإسلامية التي تقع غرب ما كان يعرف بدار الإسلام, محافظة على نظامها الإداري السابق لأنهم وجدوه نظام ثابت لهذا لم يكونوا في حاجة إلى تغييره أو تعديله [(10)]

وعندما فتح المسلمون الأندلس كانت نيتهم فتح مناطق عديدة مجاورة للأراضي العربية الإسلامية, لهذا أطلق عليها أسم الثغور, لأنها تجاور أراضي العدو . فالثغور الأندلسية : هي مناطق حربية عُهد بقيادتها لكبار القادة [(11)] وقد بقت هذه الثغور محافظة على تقسيمها الإداري الذي وضعه لها قسطنطين السابع عشر والذي أسماها أسبانيا القصوى, وأسبانيا الدنيا, بينما عرفت عند العرب باسم الثغر الأعلى وعاصمته سرقسطة, و الثغر الأدنى وعاصمته طليطلة[(12)]

ثانيًا ـ مملكتي سرقسطة وطليطلة:

المبحث الأول ـ مملكة سرقسطة :

سرقسطة " بفتح السين والراء المهملتين وضم القاف وسكون السين وفتح الطاء المهملة وفي أخرها هاء "(13) . ولمدينة سرقسطة تسميات عدة أبرزها "(أم الثغر الأعلى) , (المدينة البيضاء وسميت بهذا الاسم لكثرة جصها وجيارها, وقيل لأن أسوارها القديمة كانت من حجر الرخام الأبيض , وعروس الابرو, ويرجع ذلك لوقوعها على نهر الابرو) [(14)]

تقع سرقسطة في أقصى الشمال الشرقي للدولة الإسلامية بالأندلس, حيث تحيط بها ممالك فمن ناحية الشمال تحدها مملكتي قطلونيا آراغون, ومن ناحية الشمال الغربي تحدها مملكة نبرة ومن الغرب تحدها مملكة طليطلة وبعد سقوطها (478هـ /1085م)

أصبحت تحدها مملكة قشتتالة, أما من الناحية الجنوبية وتحدها مملكة أو إمارة السهلة التي تعد المنفذ البري الوحيد لمملكة سرقسطة أما من الشرق فيحدها بحر الروم [15]

لقد تولى العرب حكم الثغر الأعلى أثناء الفتح العربي للقبائل القحطانية أو اليمانية و تجلى ذلك في القائد العربي طالعة بلج بن بشر .حيث أستقرت القبائل العربية في سرقسطة ونواحيها, قبائل بنو عبد الدار بن قصي القانطين بقرية قُرْبُلَـان. وقد اشتركت هذه القبائل مع قبيلة بنو كعب بن الخزرج بن حارثة .

إن القبائل اليمانية استقرت في المنطقة السهلية الخصبة غير أن الحكم لم يكن مستقرا, حيث سرعان ما كانت تحصل مناوشات عدة مع المولدون, وهذا كان له أثاره على الحياة السياسية في الأندلس .

ويأتي بعد العرب المولدون هم من الجيل الذي نتج عن التزاوج بين العرب والسكان المحليين, ومع مرور الزمن أصبحوا أمراء على الثغور الإسلامية, بنو عمروس, وشبراط, وحكموا الثغر الأعلى ونواحيه أثناء عصر الإمارة و الخلافة وتمركزوا كخط دفاعي أول من الناحية الشمالية الشرقية لصد هجمات الممالك النصرانية [16].

أما البربر فعند الحديث عن الناحية الشمالية الشرقية للأندلس نجد أن المصادر العربية لا تذكر أسماء للقبائل البربرية وربما يعود السبب في ذلك إلى استقرار أغلب البربر في إقليم طليطلة, لأنه مناسب لهم, غير أن الأصطخري يورد أسم قبيلة مكناسة في المنطقة الواقعة بين الجلالقة و قرطبة [17]

وبعد الفتح العربي الإسلامي لطليطلة انتقلت الجيوش بقيادة (موسى بن نصير) إلىسرقسطة عاصمة آراغون , وفرض الجزية على السكان الأصليين.

لقد عامل المسلمون أهل الذمة وفق الشريعة والسنة, فقد تركوا لهم كنائسهم وسمحوا لهم بالعمل في المراكز الإدارية . رفعوا من شأن اليهود وسمحوا لهم بممارسة كافة المهن دون استثناء غير أنهم لم يسمحوا لهم في البداية من ممارسة العمل في المراكز الإدارية إلا زمن ملوك الطوائف .

ولقد قام اليهود بدورًا كبيرًا زمن ملوك الطوائف ؛ فقد جمعوا الضرائب و المكوس , واستعان بهم في البلاط الملكي لمعرفتهم للغات عدة, الأمر الذي مكنهم من القيام بدور الوسطاء و السفراء بين الأندلس و الدول الأجنبية .

تعد سرقسطة أو الثغر الأعلى من أكبر وأقدم الدويلات القائمة في الأندلس والمستقلة عن السلطة المركزية, وذلك أن موقعها كان يحتم عليها دائمًا الذود عن وجودها من جميع الأطماع المضطربة حولها.

تولي حكم هذا الثغر يحي بن عبد الرحمن التجيبي سنة 379هـ/989م بإقرار من المنصور ابن أبي عامر, وبقى حاكمًا عليه حتى وفاته سنة 408هـ/1017م فخلفه ولده المنذر الذي يعد أول حاكم لسرقسطة, تلقب بالألقاب سطانية فتسمى بذي الرياستين ولقب بالمنصور.

دخلت سرقسطة في معاركة ضد البربر تحت قيادة زاوي بم زيري الصنهاجي سنة 409هـ/1018م وبعد خسارة هذه المعركة أيقن المنذر عدم جدوى هذه المنازعات لكون أن أهدافها لا تحقق له أية مكاسب, حاول المنذر دخول بلنسية مستغل الاضطرابات التي كانت تعصف بها عقب وفاة مبارك العامري سنة 408هـ/1017م , وفي سنة 411هـ/1020م لكنه انسحب من بلنسية إلىسرقسطة عقب إعلان عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول حاكمًا على بلنسية .

دخل المنذر في علاقات مع أمراء الممالك الأسبانية الشمالية, وقد وصفته العامة بأوصاف الخضوع والخيانة نتيجة لتلك العلاقات المشبوهة, تولي يحي بن المنذر حكم سرقسطة عقب وفاة والده وتلقب بالمظفر وفي عهده أغار أمير برشلونه على أراضي سرقسطة, وفي سنة 420هـ/1029م تولى حكم سرقسطو ابنه المنذر بن يحي وتلقب بالمعز, وتم اغتياله سنة 430هـ/1038م, وهكذا انتهى حكم ابناء تجيب.

حكم بني هود سرقسطة عقب انتهاء أسرة تجيب وكان أول أمرائها سليمان بن محمد بن هود والذي تلقب بالمستعين, وتميز عهده بالصراع مع المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة, وقد أخذ هذا الصراع منحنى أخر, حيث استعان بني هود بملك قشتالة, وتحالف بني ذي النون بملك نافار , استمرت هذه الحروب ولم تتوقف إلا عند وفاة سليمان سنة 438هـ/.

وبوفاة سليمان اقتسم ابناءه الخمسة حكم سرقسطة وبدأ النزاع بينهم حتى استطاع أحمد بن سليمان الملقب بالمقتدر من القضاء على إخوته الأربعة , ونجى من تنكيل أحمد أخيه يوسف حاكم لاردة, وعقب استتباب الأمن داخل سرقسطة واستطاع أحمد السيطرة على طرطوشة سنة 452هـ/1060م.

وفي سنة 456هـ/1063م تمكن النورمان من احتلال مدينة بربشتر, وفي سنة 457هـ/1064م تمكن أحمد المقتدر من تجهيز قوات ومحاصرة النورمان وبعد معركة كبيرة تمكن أحمد المقتدر من استرجاع برشتر والقضاء على النورمان, ومن ثم تحالف مع بعض الممالك الأسبانية الشمالية, نتيجة لما وقع بينه وبين بعض الممالك الأخر من مشاحنات وبخاصة إن ممالك (أرجوان, ونافار, وقشتالة) كانت تتحين الفرصة للقضاء على سرقسطة.

تميز المقتدر بمقدرته السياسية والعسكرية التي جعلته من بين أحد كبار ملوك الطوائف الذين يحسب لهم ألف حساب, لما تميز بحبه للعلم والعلماء فكان قصره يعج بكبار العلماء في العلوم والآداب, سمى قصر المقتدر بقصر الجعفرية نسبة إلى كنيته أبو جعفر, كانت نفسه شغوفة بدراسة الفلسفة والفلك والرياضيات .

قسم المقتر حكم سرقسطة بين ولديه, فكان يوسف المؤتمن حاكم على سرقسطة والمنذر حاكم على لاردة وطرطوشة ودانية, فعادت الحروب الأهلية مجددًا بين الأخوة, فاستعان كلا منهما بالممالك الأسبانية الشمالية, ونتج عن تلك الصراعات دمارا للعديد من الحصون والقلاع.

وفي سنة 478هـ/1085م توفي المؤتمن وخلفه في حكم سرقسطة ابنه المستعين الذي لم يضف شيء جديد على سياسة أبيه ؛ إذ دخل في تحالف مع الأسبان من أجل السيطرة على بلنسية إلا إنه فشل في ذلك ودخل في حروب شديدة مع مملكة أرجون التي أصبحت تهدد مملكته, ونتيجة لتلك الحروب طلب المستعين العون من ملك قشتالة مقابل دفع مبلغ مالي كبير, ولكن مملكة أرجون تمكنت من احتلال مدينة وشقة سنة 489هـ/1095م التي تعد ثاني أكبر مدن سرقسطة, ودخل المستعين في معارك أخرى مع مملكة أرجون وقتل في معركة فالتيرا سنة 503هـ/1109م, وخلفه ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدين وشهد عصره دخول المرابطين إلى سرقسطة ي أواخر سنة 503هـ/1109م ونهوا بدخولهم حكم أسرة بني هود الذي أستمر أكثر من سبعين سنة .

المبحث الثاني ـ مملكة طليطلة (الثغر الأدنى) :-

توجد ثلاثة صيغ في اللغة العربية للفظ طليطلة:ـ الأولى ضم الطائين وفتح اللامين وسكون الياء (طُلَيْطُلَة), الثانية ضم الطاء الأولى وفتح الطاء الثانية (طُلَيْطَلَة), والثالثة ضم الطاء المهملة وفتح اللام وسكون المثناة من تحت وكسر الطاء الثانية ثم اللام والهاء (طُلَيْطِلَة) [17] وقد ذكر البكري " إنها كانت تسمي في اللاتينية تولاطو (18)

تحيط بمملكة طليطلة مجموعة من الممالك : فمن ناحية الغرب تحدها مملكة الأفطس, ومن ناحية الشرق مملكة سرقسطة , ومن الجنوب الشرقي تحدها مملكة بلنسية , ومن الشمال تحدها مملكة قشتالة ومملكة ليون , أما من الناحية الجنوبية فتحدها إمارة قرطبة ومملكتى غرناطة والصقالبة ((19)

كان للبربر دور كبير في عملية الفتح حيث استوطنوا المناطق الشمالية المتاخمة للنصارى فشكلوا بذلك جدارًا دفاعيًا لحماية الثغور من هجمات النصارى, ولقد ذكر الأصطخري بعض أسماء القبائل البربرية " كتامة , زناتة , مكناسة , هوازة مصمودة

" , بينما حدد ابن حزم الأمكنة التي سكنوا فيها فمثلاً " قبيلة زناتة ومنها بنو عزون كانوا أمراء لبشنت بريه , وقبيلة مصمودة منهم بنو سالم تنسب إليهم مدينة سالم " [20].

فالبربر شكلوا قوة كبيرة, مثلوا أغلب سكان طليطلة الأمر الذي جعل أمراء بني أمية يوكلون إليهم مقاليد الحكم وجعلوهم قادة لتلك الثغور .

وضمت الأندلس نسبة عالية من العرب الفاتحين من العدنانيين و القحطانيين , فلا تكاد تخلو مدينة منهم , فالعرب استقروا على طول خطوط الفتح, غير أن نسبة كثافتهم السكانية في المناطق الجبلية قليلة , لانهم فضلوا العيش في المناطق السهلية لهذا نجد أن كثافتهم قليلة في طيلطية التي تعد منطقة جبلية [21]

تعد طليطلة من أهم مراكز العصبية المولدة , حيث كانوا يتعصبون لأصلهم الأسباني في زمن الإمارة وجزء من الخلافة [22]ولكن ما حل القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حتى حصل تمازج بين تلك العناصر [23].

لقد كان لليهود دور بارز في حماية الدولة الإسلامية, وقام موسى بن النصير بضم يهود طليطلة وأوكل إليهم حماية المدينة. وقد برع اليهود في المجالات الاقتصادية و التجارية كما إنهم قاموا بترجمة العديد من الكتب العربية إلى اللاتينية والعكس .

أما عن النصارى المتواجدين في طليطلة فإن وضعهم لم يتغير إذا استمروا في ممارسات شعائرهم الدينية وبقيت أديرتهم ومعاملاتهم التجارية سائرة [24].

لقد تحدث ابن خلدون في مقدمته عن مدن الأندلس ووظائفها سواءً أكانت حربية , دينية , تجارية , صناعية , سياسية , وجعل لها أساس تقوم عليها فالمدن الحربية هدفها حماية المناطق الإسلامية, لهذا نجدها مقامه على مناطق جبلية أو محاطة بالمياه.

فعاصمة الثغر الأدنى طليطلة شيدت على قمة جبلية , وهي من أعظم مدن الأندلس وأشدها مناعة وحصانه , والذي زاد في مناعتها نهر تاجه الذي يحيط بها من ثلاث جهات و موقعها على الجبل جعلها تطل على مواقع العدو, الأمر الذي حماها, كما أن القيادة العسكرية التي كانت تديرها لديها دراية بأمور الثغور العسكرية.

أما الثغر الأعلى فيختلف من حيث موقعه بين البحر والجبل والسهل, وكل أعماله مبنية في مواقع إستراتيجية يصب الوصول إليها فالأنهار الوفيرة بالثغر الأعلى ساعدت على إقامة المدن الحربية [25]

ثالثًا ـ سقوط ثغري الأندلس سرقسطة وطليطة :

المبحث الأول ـ سقوط سرقسطة :

بعدما عاد تميم بن يوسف بن تاشفين إلى بلنسية وجد ألفونسو الفرصة سانحة أمامه للانقضاض على سرقسطة, لأنها خالية من الجنود , فحصارها بداية شهر صفر من سنة

512 هـ / 22 مايو 1118 م. بقوات من مناطق أسبانيا وفرنسا ؛ فكانت بمثابة حملة صليبية , وقدر عددها بخمسين ألف مقاتل بقيادة ابن رذمير ملك آراغون الذي توجه نحو شمالي الأندلس وحصار المدينة [26]

استمر حصار المدينة ما يقارب سبعة أشهر , وقد أثر الحصار على السكان حيث كانوا يعتمدون على قوتهم من خارج المدينة وبسبب الحصار مات معظم سكان المدينة جوعًا [27], وفي هذه الأثناء تقدم جيش مرابطي بقيادة الأمير أبي الطاهر تميم إلسرقسطة لإنقاذها إلا إنه فشل بسبب خروج زعمان من أهل سرقسطة هما الفقيه علي بن مسعود الخولاني والخطيب أبو زيد منتيال ؛ فحدثا القائد باسم أهل المدينة وطلبا منه أن يقاتل النصارى بدلاً من أرسال المؤن للأهالي , لكن ما حصل من تميم أنه رجع, لأنه كان يخشى مواجهة جيش النصارى [28].

يمكن القول أن موقع سرقسطة البعيد عن مركز إمداد الجيش المرابطي يبلنسية ومرسية وقرطبة لم يكن مشجع على القيام بأي عمل عسكري , وهكذا تركت سرقسطة تواجه مصرها[29])؛ وبسبب الحصار المفروض عليهم اضطر أهلها لمخاطبة ألفونسوا الأول وطلبوا منه هدنة مؤقتة فإذا لم يأتي أحد لإنقاذهم إنهم سيسلمون المدينة إلى ألفونسو وعندما لم تصل المساعدات للمدينة تعاهد الطرفان على التسليم وفق الشروط الآتية :-

1- تسلم المدينة إلىألفونسوا.

2- من أحب البقاء من أهلها فله ذلك. على أن يدفع الجزية , ومن أراد أن يرحل فله ذلك .

3- أن يسكن الروم المدينة بجانب المسلمين .

4- أن كل أسير من الروم يفر من المدينة ويحصل على الإسلام فلا سبيل لمالكه في استرجاعه.

وقد تم الاتفاق على هذه الشروط , وسُلمت المدينة يوم الأربعاء الرابع من رمضان سنة 512هـ / 18 ديسمبر 1118 م .

بسقوط سرقسطة أنها المعقل الثاني للمسلمين, وكانت ضربة قاصمة للأندلس ونذيرًا بسقوط باقي مدن الأندلس واحدة تلوا الأخرى(30)

المبحث الثاني ـ سقوط طليطلة :-

تعد مدينة طليطلة من المدن الأندلسية المواجهة للمالك الأسبانية الشمالية, وبهذا الموقع فهي حاجز أمام تلك الممالك, وكانت قاعد الثغر الأوسط, تولى حكم طليطلة أسرة بني ذي النون, وكان أول حاكمها إسماعيل بن ذي النون سنة 427هـ/1035م , خلفه في الحكم ابنه يحي سنة 435هـ/1043م, تميز عهده بكثرة الحروب والصراعات مع دول الطواف ولعل أشره حروبه كانت مع بني هود حكام سرقسطة وبني عباد حكام

غرناطة, كما هي العادة التي عُرفت عن ملوك الطوائف استعان يحي بن إسماعيل بملوك الأسبان مقابل دفع مبالغ مالية ضخمة والتنازل عن بعض المناطق.

وفي سنة 457هـ/1064م استطاع المأمون حاكم طليطلة من السيطرة على بلنسية, وفي سنة 467هـ/1074م دخل المأمون في صراع مع بني عباد من أجل السيطرة على قرطبة وتمكن من دخولها أواخر سنة 467هـ/1074م, تميز المأمون بشجاعته وقوته حتى أصبحت طليطلة في عهده من الدول القوية, فإلي جانب قوته العسكرية اهتم المأمون بعمارة المدينة فبني القصور وأكثر من جلب الشعراء والأدباء . ساءت أحوال طليطلة وأصبح أمر سقوطها مسألة وقت , وكانت أخبارها تصل إلى ألفونسو عن طريق الجواسيس من داخل طليطلة. ولهذا أخذ يعد العدة للسيطرة عليها (31)

لقد أخر ألفونسو السيطرة على طليطلة من سنة(474هـ/1081م) إلى سنة (478هـ/ 1085م) حتى تصبح المدينة أكثر ضعفًا ويسهل السيطرة عليها بشكل أسرع لزيادة ضعف ملوك الطوائف الذين كانوا يتحاربون فيما بينهم, ولكي يتحصل على الدعم البابوي قام ألفونسو بتوجيه رسالة إلى البابا رئيس أساقفة اسبانيا يبلغه بعزمه السيطرة على طليطلة (32).

وفي خضم هذه الظروف خرج أمير طليطلة (القادر) تاركًا المدينة وسلمها إلى ألفونسو الذي ضيق الخناق عليها بحصارها؛ والذي استمر لأكثر من تسعة أشهر, ولم يكن سقوط طليطلة بيد ألفونسو نتيجة لمحاصرته لها فقط وإنما لتخاذل أميرها وأهلها ي الدفاع عنها, بالإضافة إلى حال ملوك الطوائف الذين كانوا يسعون إلى التقرب من ألفونسو ويقدمون له الهدايا والأموال مقابل تركهم في مدنهم(33) .

لقد عقد (القادر) اتفاق مع ألفونسو يقضي بمساعدة ألفونسو (للقادر) على السيطرة على بلنسية مقابل مساعدة القادر إلى ألفونسو في السيطرة على طليطلة , ولكن قبل ان يدخل ألفونسو طليطلة وقع اتفاق مع أهلها نص على الشروط الأتية (34):-

1- أن تسلم المدينة إلى ألفونسو .

2- أن يؤمن أهل طليطلة على أنفسهم وبنيانهم وأموالهم .

3- أن لا يمنع من أراد الخروج من المدينة, وأن يسمح له بأخذ أمواله معه .

4- يلتزم من بقى في المدينة بدفع الجزية عنه وعن أولاده .

5- من أراد العودة بعد خروجه فله ذلك, وأن يسمح له باسترجاع ما كان بيده من عقار دون التعرض له .

6- أن يحتفظ المسلمون بحق تطبيق شعائرهم الإسلامية وتقاليدهم ونظمهم وقضائهم دون التعرض لهم.

7- أن يحتفظ المسلمين بجامع طيلطة الذي يقع وسط المدينة .

8- أن يؤدي المسلمون ما كانوا يؤذونه من ضرائب إلى ملك قشتالة .

9- أن يقدم أهل المدينة عددًا من أعيانهم كرهائن .

وبهذه الشروط تم أداء اليمين من قبل ألفونسو ووافق أهل المدينة وسلّمت إلى ألفونسوا في (أول شهر صفر 487 هـ / 1085 م)[35]

الخاتمة :

تناول هذا البحث ثغرين أندلسيين هما الثغر الأوسط والمتمثل في سرقسطة والثغر الأدنى المتمثل في طليطلة, وكان لهذين الثغرين دور في المحافظة على التركيبة السكانية للأندلس لمدة زمنية طويلة, إلا أن الأسبان استطاعوا بقيادة ألفونسو من السيطرة عليهما.

النتائج :

1- حافظة سرقسطة وطليطلة على التركيبة السكانية للأندلس .

2- إن الصراع العنيف لدول الطوائف, واستعانتهم بالممالك الأسبانية, أدى إلى خراب ودمار العديد من القلاع والحصون .

2- إن سرقسطة وطليطلة لم يسقطا مرة واحدة, إنما سقطت تباعًا خلال قرون عديدة بسبب الظروف التي مهدت لسقوطهما.

3- إن سرقسطة وطليطلة سلمت إلى ملوك الأسبان تسليمًا مباشرًا, بعد الربع الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي, لأن المسلمين تركوا مهمة الدفاع على المدينة تقع على عاتق سكانه الأصليين.

4- أثر سقوط سرقسطة في سقوط طليطلة, لأن سقوط الأولى جعل الحدود الإسلامية مكشوفة وملاصقة للممالك النصرانية.

الهوامـــــــــش :

[1]- ارسلان , اشكيب , الحلل الأندلسية في الأخبار والآثار الأندلسية , ج1, دار الكتاب الإسلامي , القاهرة , 1355 هـ , ص 32 .
2- العبادي , أحمد مختار , الإسلام في أرض الأندلس , مجلة عالم الفكر , المجلد العاشر , العدد الثاني , الكويت , 1998 م , ص 125 .
[3]- ابن دريد , أبو بكر محمد بن الحسن (ت 321هـ / 933م) , جمهرة اللغة, ج1, 4- تح : بعلبكي رمزي منير , دار العلم للملايين , لبنان , 1985 م , ط 1, ص 487
5- ابن فارس , زكريا أبو الحسن أحمد (ت 395هـ /1004م) , معجم مقاييس اللغة , ج1 , تح: عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي , القاهرة , 1957 م , ط3, ص 378 , 379.
[6]-الفيروزآبادي , مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 718هـ / 1415 م) , القاموس المحيط , ج1 , بيروت, (مؤسسة الرسالة , 1406 هـ) , ط1 , ص 379 . (سيشار له لاحقًا : الفيروزأبادي , جمهرة اللغة) .
[7]- ابن منظور , محمد بن مكرم بن على الأنصاري (ت 711 هـ / 1311م) , لسان العرب , ج1 , تح: عبد الله على الكبير , دار المعارف , بيروت , (د,ت) , (د,ط) , ص 486 .,
[8]- الحموي , شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت 626هـ / 1228م) , معجم البلدان , ج2 , تح: فريد عبد العزيز الجندي دار الكتب العلمية , بيروت , 1410هـ , ط1 , ص 93. (سيشار له لاحقًا . الحموي , معجم البلدان) .
[9]- الفيروزآبادي , جمهرة اللغة , ج1 , ص 379 .
[10]-دائرة المعارف الإسلامية , م5, تح: أحمد الشنتاوي وآخرون , دار المعرفة , القاهرة , (د,ت) , ص 203 , (د,ط)
[11]- ابن الخطيب , لسان الدين محمد التلمساني (ت 776 هـ / 1374 م) , الإحاطة في أخبار غرناطة , تح محمد عنان , مكتبة الخانجي , القاهرة , 1973 م , ط3 . ص 247 .
[12]- مؤنس , حسين , فجر الإسلام , دار المناهل , بيروت , 2002 م , ط1 . ص 24 .
[13]- ج. س . كولان , الأندلس , تح : أبراهيم خورشيد , دار الكتاب اللبناني , بيروت , 1980 م , ط1 , ص 82 , 90 .
[14]- الحموي , معجم البلدان , ج 5 , ص 487 . (سيشار له لاحقًا . كولان , الأندلس) .
[15]- القزويني , زكريا بن محمد بن محمود (ت 749 هـ / 1349 م) , مساك الأبصار في ممالك الأمصار , تح : أحمد زكي باشا , دار الكتب العلمية , القاهرة , 1924 م , ص 124 . (القزويني , مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)
[16]- البكرى , جغرافية الأندلس , ص 100
[17]- ابن حيان , أبو مروان حيان بن خلف (ت 469 هـ / 1079 م) , المقتبس في أخبار بلد الأندلس , تح : عبد الرحمن حجي , دار الثقافة , بيروت , 1965 م , ص 65 .
[18]- عبادي , أحمد مختار , دراسات في تاريخ المغرب والأندلس , مؤسسة شباب الجامعة , القاهرة , 1997 م , ص 120 .
[19]-الحموي , معجم البلدان , ج 4 , ص 157 .
[20]-البكرة , جغرافية الأندلس , ص 120 .
[21]- القزويني , مسالك الأبصار في ممالك الأمصار , ص 200 .
[22]- العبادي , عبد الحميد , المجمل في تاريخ الأندلس , مكتبة النهضة المصرية , القاهرة , 1958 م , ط 1 , ص 50 .
[23]- عنان , محمد عبد الله , دولة الإسلام في الأندلس , مكتبة الخانجي , القاهرة , 1997 م , ط4 , ص 60 .
[24]- كولان , الأندلس , ص 490 .
[25]- الحجي ,عبد الرحمن بن علي , التاريخ الأندلسي منى الفتح حتى سقوط غرناطة , دار القلم , بيروت , 1981 م , ط2,ص67.

[26]كحيلة , عبادة , تاريخ النصارى في الأندلس , مكتبة الجيزة العامة , مصر , 1994 م , ص 54 .
[27] السلمي , إبراهيم بن عطية الله بن هلال , تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي , جامعة أم القرى , السعودية , 1452 هـ , ص 67 . (سيشار له لاحقًا . السلمي , تاريخ مدينة طليطلة) .
[28]حميدي , عبد المنعم محمد , تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين , مؤسسة شباب الجامعة , الإسكندرية , 1986 م , ص 206 .
[29] العمايرة , محمد , مراحل سقوط الثغور الأندلسية بيد الأسبان , عمان , الأردن , 1999 م , ط1 , ص 205 - 208 . (سيشار له لاحقًا : العمايرة , نهاية الثغور الأندلسية) .
[30] العابد , القيادة العسكرية , ص 90 .
[31] مؤنس , حسين , الثغر الأعلى , ص 22 .
[32] الحاني , تاريخ مدينة سرقسطة , ص 119 .
[33] السلمي , تاريخ مدينة طليطلة , ص 145 .
[34] ابن بسام , الذخيرة , ج 1 , ص 166 .
[35] نعنعي , عبد المجيد , الأسلام في طليطلة , دار النهضة , بيروت (د, ت) , ص 293 .